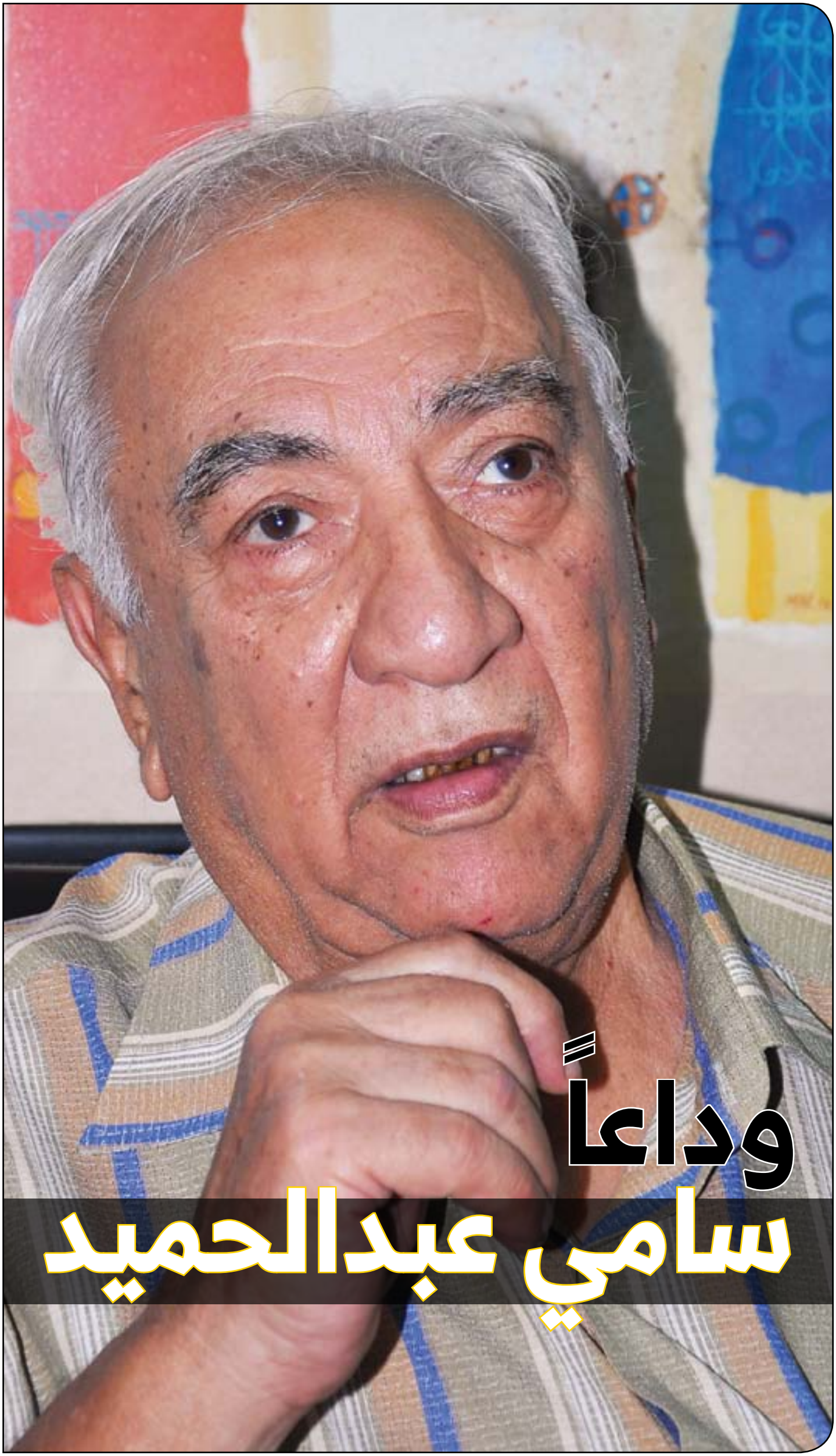

عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (4520) السنة السابعة عشرة
الخميس (3) تشرين الأول 2019
WWW. almadasupplements.com

وداعاً
سامي عبدالحميد

7-6

ذاكرة المعلم سامي عبد الحميد

سامي عبد الحميد..

خمسون عاماً من الصداقة والفن الجميل

قبل أن أتحدث عن صداقة عمر مديد بين تجليات الفن ومنعرجات الحياة جمعتنا كعائلة بالأستاذ الكبير سامي عبدالحميد أود الإشارة إلى موقف مشهود له يضاف إلى مآثره الفكرية في الفن وسعة أفقه الثقافي ومواقفه ، وأتحدث عن المشهد الافتتاحي الصادم الذي صممه إخراجاً وسينوغرافيا مشهدية وسمعية لمسرحيتي (الليالي السومرية) في عرضها الثاني على مسرح قاعة الشعب ربيع ١٩٩٥، تخطى الأستاذ سامي شأنه شأن العباقرة الكبار رؤيته للعرض الأول الذي قدمته الفرقة القومية للتمثيل على مسرح الرشيد ضمن العروض المسرحية المرافقة لمهرجان بابل ؛ فهو الفنان المُجدد الذي لم يكن يركن إلى صيغ ثابتة في إخراجه الملهم لأي عمل مسرحي بل كان دائماً يعيد قراءة الحياة واستنطاق النص ويطلق الطاقة الإيحائية والعلامات الدرامية و الفكرية التي تصلح لكل عصر .

لطفية الدليمي

كان النص مكتوباً من وجهة نظر جندرية لملحمة كلكامش : الأنوثة في مواجهة غطرسة السلطة ودور المرأة في صنع الحضارة والبحث عن لغز الموت والحياة والوجود . إرتأى الأستاذ سامي أن تقدم المسرحية بملابس شعبية معاصرة لاعلاقة لها بسومرالقديمة ، واستخدم موسيقى شعبية عراقية وجعل الصراع بين أنكيدو وكلكامش شبيهاً برقصة السيوف العراقية (رقصة الساس) ، وكان هذا أول التحديات التي لم ترُق للبعض ، وجعل سيدات العمل يحتفظن بمظهرن البابلي من ثياب وحلي وزينات ، وعند الإعداد للعرض الثاني في مهرجان المسرح العراقي على مسرح قاعة الشعب أسرّني الأستاذ سامي بأن لديه فكرة لديكور وإخراج المشهد الافتتاحي أشد وضوحاً وهي تنطوي على مجازفة ، وأردف قائلاً : قد لانسلم من عواقب تأويلاتها لكني سأنفذها منطلقاً من تحليلي لشخصية كلكامش ولن أفصح عنها بل ستفاجؤون بها لدى رفع الستارة . غاب الممثل الرئيس لدور كلكامش الفنان ميمون الخالدي فأدى الفنان العظيم سامي عبد الحميد الدور بقدرات تقنية جسدية وصوتية ونفسية مدهشة ومنح حضوره القوي والمؤثر زخماً هائلاً للعرض .

حين رُفع الستار رأينا أجساداً إتخذت هيأة قبور سوداء ، وقطع ملابس بيضاء ممزقة مضرجة بالدماء تتدلى بمستويات متباينة من سقف المسرح وتهبط ببطء حتى تلامس القبور ؛ فتنتفض القبور وتنهض الجوقة التي تتضرع للآلهة أن تخلق نداً ليقارع كلكامش المتجبر ويهزمه ، ومعها تنطلق موسيقى عراقية تراثية مع قرع الطبول واستغاثات النساء وصراخهن ، ثم تنفرد النساء بمونولوغات من إفتتاحية النص تكشف مايفعله كلكامش بمدينة أوروك وأهلها ونسائها إستناداً إلى الملحمة :

– لماذا يفعل كلكامش مايفعله بأهل أوروك .. (إستغاثات)

– لماذا هذا الذي ثلثاه من الآلهة وثلثه من البشر ،القوي الشجاع الذي أسلحته لاتضاهى ، لماذا يتفجر عنفه ليل نهار ؟

– ألا تسمع الآلهة تشكيات أهل أوروك ؟ ألا تسمع ضراعاتهم ؟

– كلكامش الذي لم تنقطع مظالمه عن أهل أوروك ،

– كلكامش الذي لم يترك عذراء طليقة لأمها ولاولداً لأبيه ، راعينا القوي إبن الآلهة ، الذي لم يترك إبنة المقاتل ولا خطيبة البطل ، فاعتصم أبطال أوروك في بيوتهم . أيتها الآلهة أخلقي ندا يصارع كلكامش ويصرفه عن فتكه بأهل أوروك ... إلخ

إنتهى العرض الثاني للمسرحية ، وكانت الفرقة تستعد للعروض التالية لكن أمراً صدر بمنع عروض المسرحية وانتهى الأمر باغتيال المسرحية ؛ لكننا نفدنا بسلامٍ وأتت مجازفة أستاذنا سامي عبدالحميد أُكلها . علمنا فيما بعد أن اتصالا جرى مع الشاعر يوسف الصائغ لإيقاف عرض المسرحية .

سامي عبد الحميد صديقاً وفناناً ومثقفاً ملهماً ندر أن ظهر لدينا فنان شامل يتمتع بقدرات فريدة بين فناني المسرح العراقي الكبار ، يجمع بين الشخصية المرحة المحبوبة والثقافة الرصينة والقدرة القيادية والخبرة المعمقة التي اكتسبها من تدريبه في مسرح شكسبير ودراسته في جامعة أوريغون الأميركية وبراعته في تدريس فن الإلقاء والإخراج وحنوه على طلبته وزملائه فضلاً عن كتاباته الثرية وترجماته المميزة . كنت دوماً أغبط نفسي إذا أتاح لي الحظ والظرف أن يقوم فناننا الكبير بإخراج وتمثيل أول مسرحية لي ، وكان من دواعي الفرح أن ألقاهما هو وزوجته الفنانة الكبيرة فوزية عارف في المناسبات الثقافية والعروض المسرحية وفي تبادل الزيارات العائلية بيننا .

ترقى معرفتي الشخصية بالأستاذ سامي عبد الحميد إلى مطلع الستينيّات من القرن الماضي ؛ فقد كان صديقاً لزوجي الراحل كامل العزاوي المخرج وأحد أعضاء هيئة مصلحة السينما والمسرح التي كان يرأسها الفنان الراحل يوسف العاني وتضم في عضويتها فنانين ومثقفين بارزين من بينهم – على ما أذكر – الأساتذة فؤاد التكرلي وجعفر علي وغائب طعمة فرمان وعبد الهادي المبارك وغيرهم .

ربطت بين زوجي المخرج كامل العزاوي والفنان الكبير سامي عبدالحميد صداقة ممتدة وعلاقات عمل ، وعندما تصدى لإخراج فيلمه التأريخي الملوّن (نبوخذنصّر) وقع اختياره على الأستاذ سامي عبد الحميد – وكانا في عنفوان شبابهما – لبطولة الفيلم الذي أنجزاه في نهاية الخمسينيّات من القرن الماضي ولم يُعرض إلا في ١٩٦٢ في ظروف اضطرابات سياسية عنيفة ، وبعد عرض الفيلم تواصلت لقاءاتنا ، وذات يوم زارنا مع شابة جميلة مشرقة قدّمها لنا : خطيبتي فوزية عارف ، وتناقشنا في تفاصيل ثوب زفافها .

تواترت لقاءاتنا خلال عروض فرقة المسرح الفني الحديث ومهرجانات الأفلام العالمية التي كانت تقام في بغداد ؛ غير أن قطعاً مروعاً حصل بعد انقلاب ١٩٦٣ الدموي حين اعتقل زوجي ويوسف العاني وعلى الشوك وعدد كبير من أبرز فناني ومثقفي العراق في معسكر الرشيد ولم نعرف شيئاً عنهم إلا بعد شهور ستة حتى حسبناهم في عداد المفقودين ؛ لكن الصداقات الجميلة تواصلت بعد انقشاع الغمة لتمتد عبر العقود التاليات .

دُهلت أيما ذهول في سنة ١٩٧٧ عندما شاهدت إخراج فناننا الكبير سامي عبد الحميد لملحمة كلكامش على مسرح أكاديمية الفنون وكان إخراجاً مبهراً جمع بين الجماليات البصرية ورفعة الفن الأدائي والموسيقى وروعة الأداء ، وقد منحت قراءته الخاصة للنص فهماً متفرداً لمضمون الملحمة مما أضفى عليها دلالات فكرية مضيئة تليق بعظمة النص البابلي وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ولم أشهد تأثيراً مماثلاً كالذي تركته مسرحية كلكامش لديّ في الأعمال المسرحية الأخرى التي استلهمت الموروث الرافديني كمسرحية الطوفان ورثاء أور وغيرها .

كان من عادتي كل عام أن أقرأ ما استجدّ من ترجمات للموروث الرافديني وأعيد قراءة ملحمة كلكامش سنوياً بعد أن أغرمت بها وجمعت نحو ثماني طبعات وترجمات مختلفة لها ، وانعكس ولعي بالتراث الرافديني بوضوح على قصصي ورواياتي ونصوصي المسرحية الخمس : الليالي السومرية ، قمر أور ، شبح كلكامش ، الكرة الحمراء ، ومسرحية الشبيه الأخير.

كتبت نص (الليالي السومرية) ونشرته مجلة الأقلام في عدد حزيران المزدوج لسنة ١٩٩٢ ، والتقيت في أواخر سنة ١٩٩٣ بالاستاذ سامي عبد الحميد في عرض مسرحي وكان برفقة الشاعر يوسف الصائغ مدير عام دائرة السينما والمسرح ، فالتفت الصائغ إلى فناننا الكبير قائلاً : هاهي كاتبة النص ، إلتقيا وتفاهما ، وفوجئت أنهما كانا يتحدثان عن نصي المنشور . قال الأستاذ سامي : لدي أفكار عديدة للعمل على نص الليالي السومرية بخاصة وأن هناك مقترحاً لتقدّمه الفرقة القومية ضمن فعاليات مهرجان بابل المسرحية ، ولابد من قراءة مستفيضة .

كنت قد قسّمت العمل إلى سبع ليال ليقدم في أماسٍ متتابعة مع توزيع الأحداث المفصلية علىٰ تلك الليالي ؛ غير أن الأستاذ سامي – بخبرته المديدة ورؤيته الفنية المتمرسة ووضوح أفكاره – إرتأى أن نقصرها على ليلة واحدة لصعوبة تفرغ الفنانين للعمل من جانب وتعذر وجود مسرح شاغر طوال سبعة أيام من جانب آخر . عملنا معاً خلال جلسات طويلة في بيتنا بالعامرية وبيته في الحارثية على اختيار المشاهد والشخصيات الأساسية وتكثيف الحوارات وحصر الفكرة في عناصرها الأساسية : دور المرأة في الحضارة ، البحث عن لغز الموت والخلود والوجود ، الكشف عن هشاشة الطاغية كلكامش . عملت بعدها على إعادة صياغة النص حسب توجيهات الأستاذ سامي وإضافاته المهمة ، وكسبت خبرة كبيرة في الرؤية المسرحية ، وكنا في نقاش مستمر خلال الإعداد للعمل ، نحذف ونضيف حتى استقر النص على صيغته النهائية ، وقد إجتهد المعلم سامي عبد الحميد في المزج بين قراءته الخاصة للملحمة وبين قراءتي لها وانتهينا إلى ضرورة إثراء أدوار النساء المهمة وعدم الإكتفاء بشخصيتيْ سيدوري وشمخت ؛ فظهرت شخصية نيسابا وأورورو الخالقة إلى جانب شمخت الغانية الجميلة الشامخة ، وسيدوري صاحبة حانة الإلٰهة الواقعة على البحر .

قُدّمَ العمل للمرة الأولى صباح يوم الأربعاء ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤ على مسرح الرشيد ، وجسّد الشخصيات الفنانون : فوزية عارف بدور نيسابا ، وآزادوهي صموئيل بدور أورورو ، وأحلام عرب بدور سيدوري ، وأميرة جواد بدور شمخت ، وميمون الخالدي بدور كلكامش ، ونزار السامرائي بدور أنكيدو، وقد استخدم الأستاذ سامي في مقاربته الإخراجية الألوان والأعداد لتأكيد علاماته الدلالية ؛ ففي أعلى المسرح وضع ثلاث نوافذ ، وقسّم المسرح إلى ثلاثة مستويات : موقع أعلى حيث تُتم آلهة الولادة أورورو عملية استيلاد أنكيدو ، وأوجد موقعاً وسطا يرمز إلى ميدان أوروك الرئيس الذي تجري فيه منازلة كلكامش مع خصمه وصديقه لاحقاً أنكيدو، وثمة مستوى ثالث تتجلى فيه سلطة كلكامش وجبروته من جانب وحيرته وعزلته عن الجميع من جانب آخر. حصلت المسرحية على جائزة الإخراج وجائزة أفضل نص يستلهم التراث الرافديني .

بعدها باعدت بيننا محنة الحصار والفقدانات الشخصية وتفكك المجتمع العراقي في عزلته بعد كارثة غزو الكويت وحرب تحريرها ، ولم ألتق الأستاذ سامي إلا بعد سنوات عجاف في عمان نحو ٢٠١١ حين كان راقداً في مستشفى دار السلام وحييته وحييت صداقة عمر بباقة وردوزرتهما هو والسيدة فوزية بعد شفائه في سكنهما بعمان رفقة الصديق الناقد المسرحي والروائي عواد علي . مازالت قهقهاته المفعمة بالأمل والمرح وحكاياته المدهشة وسخريته مما آل إليه مسرحنا ووضعنا العراقي المؤسٍ تتردد أصداؤها وتؤكد حيوية وجوده بيننا وتحوله من كينونة مادية إلى تجلٍ روحي كبير الأثر .

سامي عبد الحميد يسلط الضوء على الحياة المسرحية في العراق

عامر صباح المرزوك

ضمن منشورات دار المدى للثقافة والنشر بدمشق صدر مؤخرا للباحث الأكاديمي والفنان سامي عبد الحميد كتابه (أضواء على الحياة المسرحية في العراق : آراء نقدية وتحليلية للظواهر المسرحية خلال القرن العشرين).

أراد (عبد الحميد) من كتابه هذا أن يجمع آراءه النقدية وتحليلاته وتجربته في المسرح العربي والعراقي التي تبلورت عبر أكثر من خمسين عاما ، وبين في مقدمة الكتاب ان هذه الآراء قابلة للنقاش والتصحيح وهذا ما يدلنا على سعة صدر الباحث كونه رجلا أكاديميا يعي معنى ما يقول وما يكتب .

انطلق المؤلف من تأصيل هوية المسرح العراقي في خمسة دراسات احتواها الفصل الأول للكتاب ، وهي التي تمثل البدايات الثقافية والمسرحية في العراق وارتباطها بمعهد الفنون الجميلة في أربعينيات القرن المنصرم ، ويتسلسل المؤلف في ذكر أهم التواريخ والوقوف عند أهم رجالات المسرح الذين زرعوا بذرة المسرح العراقي . ويمكن تحقيق هوية وطنية للمسرح في العراق عن طريق إثبات السمات الخاصة في النص وفي العرض وفي المكان وفي التعليم ، وعندما تتناول النصوص واقع المجتمع بصدق أو تتناول حقبة تاريخية أو شخصية معروفة ومشهورة . إما في الفصل الثاني فقد تناول التوجهات الجديدة في المسرح العراقي ابتداءً من (طريقة ستانسلافسكي) التي لم يتعرف عليها المسرحيون العراقيون الا في منتصف الخمسينيات حينما نشر المؤلف في مجلة (السينما) العراقية ترجمة لكتاب (ديفيد ماكرشاك) عن (الطريقة) وبعض المقالات التي توضح عناصرها ، وعندما عاد (جاسم العبودي) من بعثته بشيكاغو اخذ ينادي بضرورة اللجوء إليها وتطبيق مفرداتها ، وهي إشارة ذكية من مؤلف الكتاب بأنه قد سبق العبودي بتعريف طريقة ستانسلافسكي للمسرحيين العراقيين .

وحتى فيما يخص التعرف على (برشت) فكان المؤلف هو أول من عرج على نظرية المسرح الملحمي عبر مقالة قد ترجمها ونشرها في مجلة (السينما) عام ١٩٥٦م ، ومن ثم بشر (إبراهيم جلال) عندما عاد من بعثته الدراسية من أمريكا أوائل الستينيات بأفكار برشت التي اطلع عليها أثناء دراسته .

وحول أزمة النص المسرحي العراقي توصل (عبد الحميد) إلى ان هناك مؤثرات عديدة أدت إلى تباين واضح بين وفرة النصوص المسرحية الجديدة وبين الطلب عليها ، أولها عامل الاستسهال فالمخرج يستسهل الركونة إلى نص أجنبي مترجم تتوافر فيه كل عناصر الجودة ، وان المسرح في العراق عبر أكثر من قرن من تاريخه الحديث لم يستطع ان يرسي تقاليد واضحة فيما يخص التأليف المسرحي ، زد على ذلك انه ما يزال تجريبيا في جميع جوانبه الفنية ومنها التأليف ، والمعروف ان التجريب قد يخطئ أو يصيب . وراح الفصل الثالث على ذكر تجارب مميزة في مسرحنا ، وهي مقالات قد سبق للمؤلف نشرها في الصحافة العراقية وهي : الملحمية في المفتاح والراية ، التجريب في الطوفان والحصار وتموز ، طليعية طه سالم التي افتقدناها ، كتابات جليل القيسي مرآة لروح العصر ، خمسة مخرجين اخرجوا ماكبث ، حقي الشبلي ويوليوس قيصر وجعفر السعدي ، واقعية الشريعة بين قاسم محمد وفاضل خليل ، صلاح القصب ومسرح الصورة .

ختم الكتاب بأربع دراسات حول مسارات المسرح في العراق التي قسمها المؤلف إلى : مسار المسرح التجاري ، ومسار فرقة الدولة ، ومسار مسرح الشباب ، ومسار المسرح الأكاديمي .

وبهذا قد أصاب الباحث والفنان الأكاديمي سامي عبد الحميد بان يؤصل لهوية المسرح العراقي وخاصة ان الأمم تفتخر بأصلة فنها المسرحي ، بعدما أصبح المسرح فنا كونيا تشترك فيه البلدان في مختلف أنحاء العالم.

سامي عبد الحميد
غياب رائد الحداثة المسرحية

وانا اسمع بخبر رحيل سامي عبد الحميد مرت في ذهني أزمنة مضيئة كانت تشعّ كفوتونات ضوئية رسمت خارطة كبرى لحداثة قائمة على معادلات زمنية، هذه الخارطة التي صمّمها المخرج سامي عبد الحميد، سمحت لتجاربه الإخراجية أن تتنوع كهارمين موسيقي في الارسال، وماذا تريد مخيلته أن ترسم وماذا يريد أن يرسله عبر مستويات آليات بث صوري اعتمد شفرات النص كمنطلق لمتحولات ومتغيرات، فالبعد الجمالي في تجاربه لم يكن نتيجة بل هدفاً لتحقيق علاقة الفنان – الذات الداخلية بالمحيط الكوني، ولا يرى أن هناك انغلاقات وحجباً تفصل المخرج عن العالم الموضوعي أو عالم الظواهر.

صلاح القصب

لذا فإن تجارب معلمنا الكبير سامي عبد الحميد، ترفض التجريد الخالص، كما أنه لا يراهن ماهية الشكل كقيمة منفردة و لا بتلك الثنائيات بل تجاوزها الى انشاء كوني بلاستيكي للإمساك بالمعنى الخلاق، لأنه لا يعتقد أن الاهتزازات والإيقاع وعلاقات الشكل يمكنها أن تغمر المخيلة بأصداء الواقع و لا يريد أن يعبر بتجاربه الإخراجية عبر الرمز والمجاز والاستعارات البصرية. بل استعادة مخيلة الشعر وفوتونات اللوحة التشكيلية وحركة الرليف النحتي ليرسم تضاريس جديدة لمسرح عراقي، يشع كقوة الفيزياء الضوئية لخطاب عرض مسرحي داخل مساحات التحديث التي تجعل من المسرح فوتوناً ضوئياً يسمو بفضاءات جمالية كقوة موج بصري، لذا فإن اعماله الخالدة نمت وتأسست في محيطيها الانساني والثقافي، وتفاعلت مع حقول الترددات الموجية الحداثوية لمسارات عالمية كانت معادلات موجية تدرك كينونتها الجمالية. اعماله تجولت في مدن عالم المسرح لمعادلات جديدة تشكلت في فضاءات مختلفة في حقول ومدن وتضاريس أشرتها، الشر له رأسان. هاملت عربياً. وانتيكون بيت برناد البا. الحيوانات الزجاجية، القرد الكثيف الشعر، عطيل في المطبخ، تموز يقرع الناقوس و الخادمات، انتظار كودو، المفتاح، وكم من أعمال أخرى خالدة. الخارطة الإخراجية اشبه بالخرائط المعمارية للعصر الباروكي وقوة العمارة شكلاً، وهندسة أشبه بمعمارية قصر فرساي الخالد واقتربت من الاكتشافات الهندسية الجديدة في تصميم العمارة التي هندستها وصمّمتها المعمارية الخالدة زها حديد لإنشاء مكون معماري بصري جديد، تجاربه خلخلت أفق التوقع عند المتلقي كما جعل من تجاربه أن تمتلك روح العصر وثقافته.

سامي عبد الحميد رمز وطني وثقافي كبير شكل خارطة جمالية لمسرح عراقي حداثوي شكل مداً جمالية ترتقي لعلو ومجد عالمي، تجاربه عرفت كيف تتعاقب خارج الاستنساخ والتكرار انها قوة انبثاق للحلم لترددات، لموج، للون، لمساحة، لفضاءات الكتلة وقوة التكوين وقوة السحر، كانت حضوراً مزدوجاً حضور الابداع وحضور طاقته (كمخرج) حداثوي خلاق، منجزه الفني حقول كمية هي الاقرب الى معادلات اشتغلت لتحقيق مركب فني مبهر لمعادل خلق ابداعي، تجربته الاخراجية الممتدة الى اكثر من نصف قرن اشتغلت ضمن مستويات الطاقة للمركب (الفني – العرض) والتي اشتغلت ضمن قراءات التحليل لماهية العرض كمركب يحدد البلاستيكا التشكيلية كخطاب جمالي، كشكل حسي للعرض وهو انشائيات الوحدة السينوغرافية في فيزيائية العرض بصرياً.

طاقة الرمز الكبير سامي عبد الحميد تحركت ضمن مستويات المركب الادائي، فكان ممثلاً كبيراً ممثلاً إستثنائياً وكانت طاقته الادائية انشاءً فضائياً مركباً، فكان اداؤه لشخصية، لير، والتي استقبلها الجمهور تصفيقاً لمدة اكثر من خمس واربعين دقيقة، كان ساحراً في أدائه للخال فاينا و الشقيقات الثلاث، واغنية التم والمتنبي. كانت قراءاته كممثل قراءة تحليلية جديدة في اسلوبية الاداء كان اشبه بالساحر اشبه بالمهندس المعماري اشبه بالروائي بالشاعر بالتشكيلي بالموسيقي، ادائه كان فيضاً من الطاقة لرؤيا جديدة للمكون الادائي بتداخل الموجات الصوتية والجسدية ليصل إلى طاقة الفكر إلى النشوة الجمالية إلى أبعد حدود الطاقة لتحقيق حالة الانبهار في كل لحظات الاداء.

أداؤه كان يمتلك كل الجزيئيات وتفاصيلها كان الممثل المفكر الذي يمتلك فلسفة وفسلجة الجسد بكل جزيئياته وتفاصيله، ان يفكر ومن خلاله أن يكون تفكيره آنياً تنبعث منه الحرارة المتحركة والمتغيرة باستمرار، هذا الاداء ليس فعلاً داخلياً انما هو شيء يمكن أن تتحسسه وتراه عن قرب، كما يمكن أن نحس حرارة انفعالاته المصمّمة بقصدية مركزة مثل هذا المركب الأدائي ليس سهلاً، لأنه يركز على وجود الممثل المفكر التشكيلي الذي يرسم الجسد وطاقة الموج الأدائي كما في مسرحية لير والشقيقات الثلاث والخال نانيا، سامي عبد الحميد رسم اداء الممثل الحر المتحرر من خوفه.

الكبير سامي عبد الحميد ظاهرة من الصعوبة أن تتكرر، لأنها تحتاج آزمنة، انه انه المفكر والباحث والمترجم والاكاديمي والممثل والمخرج، إنه الأب الروحي لكل الأجيال، انه طاقة الحداثة وطاقة التجريب، انه الموج المشعّ، سامي عبد الحميد المفتاح الذهبي لمسرحنا العراقي.

سامي عبد الحميد..
القابض على الجمر في زمن صعب

عدنان منشد

رحل استاذنا سامي عبد الحميد هذا العام بعد حياة فنية حافلة وكان في اخر ايامه قد ، لوح لنا بعرض مسرحي جديد من انتاج دائرة السينما والمسرح، عرض يتناول جريمة «سبايكر» المفجعة التي ما زال صداها يقطر دما في ذاكرة العراقيين وكافة الشرفاء في العالم. واحسب ان هذا الاستاذ وهو في هذا العمر وهو من القلة القليلة القابضة على الجمر في زمننا العصيب، التي تعي اهمية الحفاظ على كرامة الفنان وشرف الكلمة واستقلال الفنان وكسب المصداقية للفن الجاد الرفيع، منذ ان علا نجمه في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين وحتى طبقت شهرته الآفاق كرجل مسرح شامل معروف في مهرجانات بغداد ودمشق والقاهرة وقرطاج وعمان، مع حضوره في اكثر من محفل دولي او اية ورشة مسرحية في العالم، كشيكاغو ولندن وباريس وروما والكويت والدوحة والشارقة. لذا لم يكن هذا الاستاذ الفنان محض نغم عابر في سماء مسرحنا المحلي العراقي، ان لم يكن سمفونية وطنية مكتملة غزيرة الارجاء، بعيدة الابعاد تحمل غار المجد واكاليل الظفر.

لو شئنا الحديث عن سامي عبد الحميد كانسان اولا لقلنا انه من مواليد صحراء «السماوة» عام ١٩٢٨ من أب تكريتي المولد والنشأة، عمل كموظف في سكك الصحراء بصفة كاتب حسابات او ما يصطلح عليه في ذلك الوقت بـ الدفتردار حسب المصطلح العثماني المتداول او صندوق امين السماوة على وفق التعبير الملكي وقتذاك. وقد تزوج هذا الاب بعد سنين من هذه الاقامة فتاة «سماوتلية» من عائلة مشهورة تدعى بعائلة «الدهان» القريبة من شاطئ الفرات ونخل السماوة الشهير الذي غناه مطرب معروف قبل ان ينتقل فيه شاعر عراقي معاصر بقوله: «تخيلت ان نخل السماوة نخل السماوات».

هكذا ولد سامي ونشأ في البلدة الصحراوية المذكورة. وحينما اصبح طالبا في المرحلة الثانوية، اضطر الى ان يسافر ويكمل دراسته في لواء الديوانية وقتذاك، ثم ليعمل تحت اشراف معلم الفن الاستاذ حسين الرفيق او الرفيق الشهيد سلام عادل في مسرحية تاريخية نابضة بالعروبة والنضال، وكان في معيته زميل آخر بدور امرأة يدعى «عصمت كتانة» الذي هاج وماج في نهاية تلك المسرحية بفعل السخرية التي عاناها من الزملاء والمشاهدين الذين يعرفونه عن كثب، لتتوقف هذه المسرحية في ليلتها الاولى، ثم ليصبح عصمت كتانة في سبعينيات القرن الماضي الدبلوماسي العراقي المعروف، كممثل دائم للعراق في الامم المتحدة.

حقائق شخصية تحدث بها لنا الاستاذ سامي عبد الحميد عن تاريخه الطويل في الحياة والفن والسياسة بألفة محببة صريحة او مبطنة لا تخفي علينا نحن الطلبة في درسه الاكاديمي في سنوات قسم المسرح في كلية الفنون الجميلة ومنها اعترافه بان الريادة المسرحية في العراق، هي من المداميك او الاسس التمهيدية الاولى للأستاذ حقي الشبلي بل ان اساتذته الثلاث الآخرين جاسم العبودي وابراهيم جلال وجعفر السعدي هم من ساروا على خطى ريادة الاستاذ الاول كفنانين من ابناء هذا الشعب، وليسوا بالمرة كحقي الشبلي، حينما يكون ملكيا اكثر من الملك. اما ان يكون هو من المحسوبين على هذه الريادة، فانه لا يتوانى عن ذكر اصدقائه العاملين او المواكبين معه في مراحل متعددة من السنين امثال بدري حسون فريد وكاظم حيدر وعبد الواحد طه ويوسف العاني، خصوصا وان اقترانه مع الاخير في تشكيل جمعية «جبر الخواطر» المسرحية في كلية الحقوق في اواخر اربعينات القرن الماضي هو اشبه باقتران النجمين الانكليزيين المشهورين لورين وهاردي.

هذا التمهيد الاولي هو بلا شك يكشف عن مسار استاذنا سامي عبد الحميد في الحياة كانسان منهمك في قضية الايديولوجيا والمسرح، إذ هي المفتاح الحقيقي لدراسة منجزه المسرحي كممثل ومخرج ومُنظّر ومترجم و«ديراماتورك» واستاذ اكاديمي للعديد من الاجيال المسرحية، وهي ما تجعلنا نثق برؤيته الراقية في المسرح، وهي رؤية ملتزمة دون ان تكون متزمتة، هادفة وممتعة في الوقت نفسه، راقية دون تعال على الجمهور، وشديدة الحساسية بمشكلات الناس دون ان تتملقهم.

لقد ابحر سامي عبد الحميد في المدارس المسرحية كلها، محلية كانت ام طرازية ام كلاسيكية او اليزابيثية من خلال روائع شكسبير او طليعية عبر فرائد صامويل بيكيت ويوجين يونسكو وجورج شحادة، من دون ان يتخلى عن انهماكاته الرافيدينية في ملحمة كلكامش التي قدمها في عروض متعددة «مسرح الشعب، المسرح الروماني، المسرح القومي في كراة مريم» كأنني بالأستاذ سامي عبد الحميد واحد من الذين ساروا على خطى المخرج النمساوي الشهير ماكس رينهارت في انتقائيته المعروفة بين الربع الاخير من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين المنصرم. واعترف شخصياً ان حديثي مع الاستاذ سامي عبد الحميد حول هذه الانتقائية المعلنة التي تفرد بها رينهارت قد تضفي عليه شخصية المقلد او المطبوع على هذه البصمة الاخراجية التي لا يعرفها الا المقلدون التقليديون. وكان رده المقنع: ألم يكن اللا منهج هو المنهج ازاء كل التجارب الطليعية في العالم؟ وهذا سؤال على المسرح العراقي في الوقت الراهن ان يجيب عنه حتى تستطيع عروضنا المسرحية الراهنة تجديد دمها وحيويتها. وعلينا ان ندرك بقدرة سامي عبد الحميد على تجاوز معمار العروض المسرحية التي عرفناها في نصف القرن الماضي في عدد من اعماله المسرحية التي فتحت آفاق التجريب واسعا، ومنها: «تموز يقرع الناقوس، الخرابة، كلكامش، هملت عربيا، الزنوج، الخان، بيت برنارد ألبا، عطيل في المطبخ، طقوس النوم والدم..» وغيرها الكثير.

ومع ذلك اعتقد ان مسرح سامي عبد الحميد صادر عن تجربة واقعية «ذاتية او سماعية» فليست ثمة قضايا ميتافيزيقية ولا تطلعات اشارقية وحدسية ولا انهماكات او نزوجات صوتية «الا في القليل» لان سامي رجل حسي دنيوي ملتصق بالأرض والواقع، لا يغامر عن الابتعاد عن العراق، حتى وان توافرت له فرص عديدة متنوعة، لأنه يفقد قواه او يظل جناحه مشدودا بألوان قوس قزح قد لا تستديم او تُفعّل هاجسه المسرحي المعتاد في الفن والحياة.

كانت عروضه تزخر بأنماط عديدة من الصور «الحسية والذهنية والرمزية» ولا يدعي البتة انه من انصار مسرح الصورة، كما فعل تلميذه صلاح القصب. وكان يلجأ هذا الاستاذ الى آليات ووسائل متعددة كالتجسيد والتشخيص والتجريد والتشبيه والترميز والمنولوجات وتبادل المدركات والتلوين والتراسل والتراكم والمفارقة والمعادل الموضوعي كما في «كلكامش» او يسعى الى اقتران الاضداد او الى تقنيات عديدة يحقق من خلالها ابتكار الصورة كما في «عطيل في المطبخ» حينما قلب صورة هذا الامير الافريقي الى عاشق معاصر لـ«رزدمونة» داخل كافيتريا دائرة السينما والمسرح وتقريب هذه الصورة من خلال الفنتازيا والدهشة والطرافة والحلم.

ولأننا من عايشنا هذا الاستاذ في درسه الاكاديمي ومنصات المسرح كممثلين ونقاد ومخرجين – احيانا – او مريدين وحواريين في احيان اخر، فإنني شخصيا لا اخفي سرا ان قلت ان استاذنا سامي يفتنه القول احيانا عن المقول، والشكل عن المضمون، او هدف الفن ان كان للحياة، ام للفن وحده، وقد عانيت شخصيا من هذا الامر لسنوات عديدة، قد يعرفها الآخرون من زملائي في سنوات مضت وانقضت، كما عشناها جميعا، بعد ان قلب لنا ظهر المجن في مناسبات كثيرة، حينما كان يعامل اي مؤلف او مخرج او ممثل كأي قزم صغير او تلميذ خارج عن الطاعة.

المصيبة اننا صبرنا على هيمنة هذا الاستاذ واحتداماته غير المبررة بحقنا، لا من خلال هيمنته على المشهد المسرحي خلال عقود سابقة منصرمة ولا من خلال الزاد والملح الذي جمع بيننا لمرات عديدة ولكننا في الحقيقة كنا نعتبره الاب والمعلم الاول لنا، نستذكر درسه الاكاديمي المخلص مرارا ونذرف الدمع ايضا بعد ان صيّر للمسرح العراقي فضاءات بهية متألقة، تفيد وتمتع وما زالت تغزو عقولنا وقلوبنا وتأخذ بألبابنا حتى اليوم.

ألم يكن سامي عبد الحميد حتى يوم رحيله القابض على جمر المسرح في هذا الزمن العصيب؟ ام ترانا ما زلنا مقصرين معه

العدد (4520)
السنة السابعة عشرة
- الخميس (3)
تشرين الأول 2019

ذاكرة المعلم سامي عبد الحميد

عراقي الروح، حضور مفرح، طيبة متناهية، حيوية منجزة، وانغمار كلي في فضاءات المسرح، دراسـة وتدريبـا ، تمثيلاً واخراجاً، كتابةً وترجمة، وحضـوراً بهياً فاعلاً في المهرجانات واللقاءات المحلية والعربية، واشرافا جدياً على اطاريح طلبة الدراسـات العليا في كلية الفنون الجميلة ، ورأياً لا يستغنى عن تصوياته الدافعة في اي ندوة او لجنة فنية، ومغامرة دائمة لأصطياد الحديث في الظاهرة المسرحية ، شجرة عملاقة في بسـتان المسرح العراقي والعربي ... انه الرائد المسرحي اسـتاذ الاجيال ، شيخ المخرجين والمجربين العراقيين ، الفنان الكبير، المعلم الكبير سامي عبد الحميد .

عزيز خيون

شرفني برؤيته في المرة الاولى مشاهداً في واحدة من ابداعاته التمثيلية، فجذبني اداؤه، وبهرني سحر حضوره الطاغي ... ومن ثم تلميذا على يديه الكريمتين، يفتح مغاليق صندوقنا الصوتي ، وينظم انهمار نعمة الكلم على شفاهنا المرتبكة، لم يرهبنا بسطوة استاذيته، او يشعرنا بثقل برنامجه التعليمي، بل كان صديقاً اليفاً في حلقتنا وعطوفاً، يحيل زمن المحاضرة الى فضاء للعب والمتعة، ولكن شرط الفائدة والمعرفة، حتى كنا ننتظر موعد درسه بلهفة المشتاق، ونتمنى لساعاته ان تقيم .

وثالثة يختارني الحظ ان اكون ممثلاً في عمل مسرحي من اخراجه ، واكتشف فيه شخصية اخرى، الفنان المثقف، والعالم الجليل، وتواضع المفكر، يقود التجارب اليومية بدون استعراض وضجيج، وانما بهدوء وحكمة ، وانفتاح كامل للعقل والروح على اية ملاحظة واردة ، ومن اي عضو في الفريق العامل، مهما كانت تجربته العمرية ومكانته الفنية ، يسمعها ، يتاملها ، يحاورها ، ويجرب صحتها في ارض التجربة، لكنه ينقلب كائنا اخر لايشبهه بالمرة، يهدر انفعالا واحتجاجاً حين يبتعد قانون التجربة اليومية عن مسارات عُرف المسرح وقوانينه الثابتة..

ورابعة ممثلا معه في تجربة مسرحية من اخراج الراحل الكبير ((ابراهيم جلال)) ، واقرأ في سفر تجربته الغنية عنواناً جديدا في التزام الممثل، في تصوفه وانضباطه بأخلاقيات ولزوميات المسرح، في احترام شخصية الممثل الفنان في الحاحه ، يسأل الاخرين رأيهم بتوصلاته واجراءاته ، وفي محاولاته المضنية للاقتراب من شخصية الدور بشكل يخاصم النمطية ، ويفر صوب تجليات الابداع .

وخامسة تكافئني نجمة الصدفة ، واتشرف ان يكون الكبير سامي عبد الحميد ممثلا عندي في تجربة مسرحية، اتصدى لاخراجها – اعود للحديث عنها بعد قليل – وفي جميع هذه المحطات، كان المعلم ، هو ذلك الانسان الرقيق المتواضع، والطفل الكبير، المتشبث بكل التقاليد التي ارسى داعائمها الصلبة سدنة المسرح الكبار، بل ويزيد عليها من فضل حرصه وطيبته وايمانه وحركته الكثير ... فيه روح ((ساكس منينجن)) وتلقائية ((اندريه انطوان)) ودكتاتوية وابتكارية ((ادولف ابيا)) وجنون ((ارتو)) وفنية وحلم ((كوردن كريج)) وسحر ((ديفيد بلاسكو)) واخلاقية ومنهجية ((ستانسلافسكي)) واسلبة وشرطية ((ميرخولد)) وثورية ((ماكس راينهارت)) وتعليمية واستفزازية ((بسكاتور)) وملحمية ((بريشت)) واحلام مسرح الطليعة، فيه خصوصية سامي عبد الحميد المسرحية ، وعبق عراقيته ، ثقافته، بحثه واستمرارية تحديه الشاب ابدا ...

عجلة تدور على الدوام، لايقتنع بما يكتشف، ولاتأتيه السعادة بالذي بين يديه ، لايثبت على حال واحدة، هي تميمة تميزه مخرجا عن اقرانه ومجايليه، مغامر يرمي بنفسه في لجة بحر التجارب وكأن ((النفّري)) يصرخ به ((... ان في المغامرة شيئا من النجاة)) لاترهبه العواقب ابدا، انما الذي يشغل فكره ويستحوذ عليه، هو ما يفوز به من شعور هائل باللذة والراحة، وتجدد الطاقة، وهو يجوس بعصا المعرفة فضاءً بكراً ، تلك هي سعادته الكبرى، وكاني أسمعه يهتف بطلبته ومريديه ((النتائج تأتي لاحقا))، لذلك ترى التنوع والتجوال في ارض المناهج وفضاءات العرض ميزة واضحة في اطياف تجربته المسرحية، والانتقال من لون الى اخر يعاكسه ويشاكسه، فمرة نراه عالميا او عربيا، واخرى عراقيا، معاصرا ، او راحلاً جهة التراث، وتارة تصادفه واقعيا صرفا ، واخرى يفاجئك طليعيا وتجريبيا ، يشد عرش معمارية المسرح، ويهز ثباته واستقراره، يقدم تجاربه بين احضان الجمهور، او في مطعم ، وحتى في بيت عراقي قديم...

هو منقب مسرحي ، تؤرقه مسؤوليته الوطنية والثقافية ، يحركه وعيه وثقافته الشاملة ، وتقوده سحرة اللاقناعة والاطمئنان .... يكون الجواب نعم. هو مرتبك، ملتهب، تتقاذفه مردة الخيارات وسَعلاة القلق، وتنهك دماغه الكريم اسئلة كونية محيرة ؟ والاجابة ايضاً نعم ... وذات الخصلة تمارس فعلها عليه ممثلاً، حين اندماجه بهذه التجربة أو تلك، مع هذا المخرج أو ذاك الشاب.

وتنفتح عين السؤال على سعتها ، حين يرتضي العمل ممثلا مع من يختلف معه في الرؤى والتصورات والتوجه، ولايشاطره الاختيار والمنهج ...

هكذا هو سامي عبد الحميد ، وكانه يريد ان يظل طفلاً يمارس براءته ولعبته وبساطته، يمارس تعلمه وتعليمه ، دون القبول بسلطان الرضا ، شارة الاستاذية ، بريق النجومية ، وإغراءات التسيد، بديلا عن كنوزه التي يدرك هو قيمتها، ويقدرها الاخرون حق التقدير، هو يرفض صولجان الاحتراف، وقبعة الادعاء، ويرحب بسجادة الهواية .

لم يؤكد يقيني هذا فقط اقترابي منه متابعاً وتلميذاً وممثلاً، وانما تشريفه لي ان اقوده مخرجاً في واحدة من تجاربي المسرحية ، التي تحمل عنوان ((ابحر في العينين)) لصالح اتحاد المسرحيين العرب، مركزه بغداد انذاك، التي رافقتني فيها د. عواطف نعيم كاتبة للنص و ممثلة، والفنان ((صفوت الغشم)) من اليمن مع د. رياض شهيد من العراق. في هذه التجربة علمني د. سامي عبد الحميد الممثل، علمني الكثير، وفاجأني بالاكثر ... في تواضعه الجم، وهو يستقبل ملاحظاتي وطروحاتي، برغم انشغالاته التي اعرف واقدر ، وهي عديدة ومتشعبة، ولا تفوته محاولة ان يزخرف سلوكه الرائع هذا بفرحه وثنائه على ما اتوصل وانجز، على مانتوصل وننجز .

وغالباً مايميتني خجلاً، عندما يبكر ويسبقني بالحضور، في صبره على طلباتي الكثيرة وصعوبتها، واصطباره على حدة وقسوة المناخ التموزي في القاعة التي شهدت تجاربنا اليومية ، قاعة تدريب في الطابق الخامس من مبنى دائرة السينما والمسرح ، الكائن في منطقة الصالحية ، مقابل فندق المنصور ميليا ، كانت هذه القاعة مخزنا للازياء، وفي وضعها الحالي ينعدم فيها اي مصدر للتكييف ، بحيث تصبح كالمقلاة الكبيرة، تمتص مصل طاقاتنا، وتشوي اجسادنا دون شفقة او رحمة ، لكننا نصر ونعاند ، نستحم بعرق التدريب، نجفف قمصاننا ونعاود التجربة، برغبة اشد، وطاقة اعلى ، ونمضي في طريق مخاطرتنا الشائك، مرة يظللنا الصحو والهدوء، ومرة اخرى تلبد الغيوم، عربدة الريح، واصطفاق بوابات الرعد والبرق، وحرائق الزلازل ، حتى انه هجم علي في احد المرات يصرخ ((.. بابا اني عمري ٦٨ سنة، وانت تريد مني اشتغل بطاقة شباب، انت تعرف شنو معنى ٦٨ سنة)) ابتسم، واجيبه بحماس يضاهي حدة غضبه ((اني مامسؤول كمخرج اطلب منك ان تنجز هذا الجزء من الديالوج كما اتصوره أنا وبنفس الدرجة من الانفعال والحيوية والا يصبح لا معنى له، أنت تعمل معي الان الشاب سامي عبد الحميد وليس الشيخ سامي عبد الحميد)) .... يحدق في وجهي وهو يلهث متعجبا مما يسمع، يبتسم، يلوح بيده في الهواء، يتحرك، يتوقف، يدور في المكان، المقلاة، الفرن، ثم نواصل التدريب، وينفذ الواجب المطلوب بطريقة تعجز عنها قوة الشباب .. أصفق طويلا .. طويلا له.

تكتفي التجربة بالزمن الذي خصص لها ، نستقبل دعوة لتقديمها في مهرجان المسرح الاردني، تفوز بالحياة على فضاء المسرح الدائري في المركز الثقافي الملكي وتحقق نجاحا متميزا ويستقبلها الجمهور باحتفاء كبير، يعتلي خشبة المسرح .. ثناء .. عناق .. اطراء .. وابتسامة فرح وانتشاء تزينّ وجه د. سامي عبد الحميد، أحدهم يسأل مداعباّ ((تريد أن تقتل الرجل؟)) وأخر يحتضنني مهنئاّ يقول: ((في هذه الليلة لم نر سامي عبد الحميد ابن السنوات التي تقترب من السبعين، انما لمسنا فيه روح الشباب وهي تبدع على المسرح حياة تتجاوز التوقع)).

وعلى جناح حلمنا العنيد، نحلق صوب مهرجان البحر الابيض المتوسط في مدينة (كونفر سانو) جنوب ايطاليا، تلبية لدعوة موجهة لنا من المهرجان المذكور ... هناك أطبقت على د. سامي عبد الحميد مشاعر متضاربة، هي مزيج من الخوف والتردد والقلق، من التحسب المضاعف، والانفعال المفاجيء، وحتى دون سبب أو مبرر يقنع المراقب، لكني وحدي أدرك الدافع المفجّر لهذه العواطف، منها الشعور العالي بالمسؤولية وهو يلتقي جمهورا غريبا، يقف بينه وبينهم حاجز اللغة، كذلك كانت جميع تدريباتنا تجري استعدادا للعرض على مسرح تقليدي ((مسرح العلبة الايطالية)) كما حصل في عمان، أما الان فان العرض سيكون وسط كنيسة قديمة تعود كما أعتقد للقرن الثامن عشر، وأنا اخترت شكل العرض بعيدا عن مسرح العلبة الايطالية الذي تدرب واستعد له د. سامي عبد الحميد، وانما ضمن تقنية المسرح الدائرة، اي ان الجمهور يحيط بالعرض من جميع جوانبه، وهذا يتطلب منا تدريباً جديداً من الصعب توفيره بالعجالة التي نحن فيها، وجهداً اضافياً من الممثل د. سامي عبد الحميد تحديداً، الذي عليه يقع ثقل العمل بالكامل، يجب عليه وعلى صفوت الغشم وعواطف نعيم ان يتوجهوا في الاداء تنفيذاً للميزانسين الذي وضعته بحيث يرضي الجمهور في جهاته الاربعة التي تحيط بمكان العرض، من جانبي كمخرج احتاج فقط من ساعتين الى ثلاثة، هي فترة الوقت اللازم للتدريب، لاجعل د. سامي وبقية الفريق يتمكنون من السيطرة على وحدات المكان الجديدة ويألفونها، ولكي اطمئن د. سامي بالحلول السريعة التي توصلت اليها ، لكن حرارة المناخ، والمكان الجديد، وشكل الواجب الذي ينبغي ان ينفذ بالضبط، وتأزم د. سامي حال دون انجاز هذا الاجراء الضرورة، مما حدى بي أن أطلب منه والسيدة عواطف والاخ صفوت الغشم، العودة للمكان الذي نقيم فيه كسباً للراحة، وان يلتحقوا بي قبل العرض بساعة واحدة لاجري اللازم .

يتبخر الوقت سريعاً نجري تدريباً خاطفاً على الربع الاول من العرض بشكل فعلي، اما بقية الاجزاء، فتوجيها بالكلام فقط والاعتماد على ماتم انجازه سابقاً، هذا ماسمحت لي به فسحة الوقت المتاح، والجمهور الذي داهمني فجأة، والذي صار يتصرف بالمكان كما يشتهي ويرغب، المكان الذي كنا قبل قليل نحن اسياده الفعليون ..

لا ادري باي الكلمات تمتمتُ بوجه د. سامي، اخفف من سورات قلقه، واغادره لانجز واجبات اخر ... تحين دون قصد مني بين اللحظة والاخرى، التفاتات مرتبكة جهة الزاوية التي كان يعنف محيطها بتلويحات يديه، ويهرس ارضيتها بغضب قدميه .. بلغة البرق اختم توجيهاتي الاخيرة، على الاضاءة، فضاء العرض وجلسة الجمهور، اعود اليه سريعا لكن ((عواطف)) و ((صفوت الغشم)) ينصحاني بعدم التحدث اليه، وان نمنع اي احد الاقتراب من حضرته .. اشعر به مرجل يفور، سيكارة تؤشر لسيكارة، يروح ويجي، وكانه يهاتف بخطواته كل الارواح التي تسكن رواق الكنيسة، يستدعيها، يطلب عونها، يتشبث باطار النافذة، هو الان يستنجد بقوى غيبية، واصدقاء مجهولين، اهو نوع من الصلاة خاص، ما يتوسل ويفعل ؟!

العرض يحين وقته، أقبل ((عواطف)) وكذلك ((صفوت)) اركض باتجاه د. سامي، احتضنه واشد عليه، ولا ادري بأي الكلمات المفيدة نطقت ...

لحظة الامتحان الان تبدأ، ذي فواصل العرض تسلم بعضها للبعض، بضبط وتأثير يكشف د. سامي عن طاقة ادائية هائلة، طاقة ضُغطت وضُغطعت، لم تقتنع بحيزها فأنفجرت بشكل مدهش، ادى بصورة كما لم يؤد مثلها من قبل، حيوية مفاجئة، وخفة شابه، حضور طاغ، تصوير مبدع، جسد وصوت يهدر في المكان والزمان ...

الان النهاية تعلن ضربتها، يندفع الجمهور، يهتف بعاصفة من التصفيق، الفنان الايطالي ((جينو لاكابوتو)) مدير المهرجان، يهجم على د. سامي عبد الحميد، يهبط على قدميه، ثم ينهض ويقبله من رأسه، وسط مشاعر الفرح، التي بالدموع خضبت لحيته، التصفيق يسخن ويشتد ... قامة د. سامي تطول وتطول، تتجاوز طابق الكنيسة الاول، ثم الطابق الثاني، يتسربل بقفطان الابداع الهائل الطول والهيبة والنضارة، تتسع دائرة التصفيق وقامة المعلم سامي عبد الحميد ترتقي وترتقي، تتجاوز برج الكنيسة، ومن هناك من العلو الاعلى يطل علينا وجه الطفل بأشد حالاته اشراقاً وانتشاءً، يهز رأسه محيياً، تتناثر من تاج رأسه الابيض زهورٌ على هامات الحضور تحية وعلى مبنى الكنيسة احتراما وشكراً ...

سامي عبد الحميد.. مشروع لم يكتمل

طه رشيد

الأستاذ الاكاديمي والمربي الفنان سامي عبد الحميد، تتلمذت على يده أجيال عديدة، كان واحدا من الفنانين القلائل الذين يبحثون دائما عن الجديد الإبداعي مخرجا كان ام ممثلا، فشهد له المسرح العراقي تجاربا ما زالت خالدة في الذاكرة: تموز يقرع الناقوس، قرندل، حفلة سمر من اجل حزيران، هاملت عربيا، بغداد الازل بين الجد والهزل، نفوس، رحلة في الصحون الطائرة، اغنية التم ، الملك لير، المتنبي، ثورة الزنج، ملحمة كلكامش، بيت برناردا البا، أنتيغونا، المفتاح، في انتظار غودو، عطيل في المطبخ، القرد كثيف الشعر، الإنسان الطيب، انسو هيروسترات، غربة، وعشرات أخرى من الأعمال المسرحية وتجارب سينمائية وتلفزيونية ودرامية. لكن هواه ظل مسرحيا، مكرسا جل وقته للفن المسرحي تطبيقا ونظريا، فكتب العديد من الكتب والمقالات والترجمات: صدى الاتجاهات المعاصرة في المسرح العربي، الملامح العربية في مسرح شكسبير. السبيل لإيجاد مسرح عربي متميز. العربية الفصحى والعرض المسرحي. فن الإلقاء. فن التمثيل،د. فن الإخراج. ترجم عدة كتب تخص الفن المسرحي منها: العناصر الأساسية لإخراج المسرحية لألكسندر دين. تصميم الحركة لأوكسنفورد. المكان الخالي لبيتر بروك.

شارك في العشرات من المهرجانات المسرحية العربية ممثلا أو مخرجا: مهرجانات الهيئة العربية للمسرح . مهرجان قرطاج مهرجان المسرح الأردني. مهرجان ربيع المسرح في المغرب. مهرجان كونفرسانو في إيطاليا. مهرجان جامعات الخليج العربي. أيام الشارقة المسرحية. ونال سامي عبد الحميد العديد من الجوائز وشهادات التقدير من جهات مختلفة، حيث منح وسام الثقافة التونسي من الدرجة الاولى في تكريم خاص من قبل رئيس الجمهورية التونسية الأسبق زين العابدين بن علي.

كان جديرا بكل المناصب التي شغلها طيلة حياته فكان نقيبا للفنانين العراقيين، رئيس المركز العراقي للمسرح، رئيس اتحاد المسرحيين العرب. ومنذ مطلع السبعينات شغل منصب معاون عميد أكاديمية الفنون الجميلة لشؤون الطلبة، فكان اداريا صارما وصديقا حميميا للطلبة الجادين في قسم الفنون المسرحية. وحتى أيامه الأخيرة في المستشفى كان حريصا على مراجعة بعض اداريه الطلبة!

ولا يمكن أن ننسى دوره في تعضيد مكانة فرقة المسرح الفني الحديث، عراقيا وعربيا، بجانب الراحلين ابراهيم جلال ويوسف العاني وخليل شوقي وقاسم محمد.

وبعد تردي الواقع الثقافي العراقي، وبالأخص المسرحي، نتيجة الحصار والحروب وسياسات الأنظمة المتعاقبة على حكم العراق، وبعد مرور ما يقارب ثلاثة عقود على توقف فرقة المسرح الفني الحديث، حاول، رغم كبر عمره، إعادة تأسيس الفرقة بوجود شلة من الفنانين الجادين: جواد الاسدي، عقيل مهدي ، كافي لازم، حكمت داود، طه رشيد، مظفر الطيب، محمد عمر، واخرين.

ورغم صعوبة حركته ووضعه الصحي، الذي لا يحسد عليه، الا انه قدم للفرقة الجديدة ثلاثة مشاريع بين تمثيل واخراج، كان يفترض أن يتم اختيار احد هذه المشاريع ضمن برنامج فرقة المسرح الفني الحديث المقبل، إلا أنه لم يكتب لنا وله الحظ أن نشاهده مجددا على المسرح، فلقد كان « الموت اللئيم» أسرع مما كنا نتصور!

ذهب سامي عبد الحميد وما زالت مشاريعه قائمة، وسنواصل المسيرة على خطاه بالبحث عن الجديد من أجل تحقيق رسالته المسرحية في خلق انسان عارف واع، محبا للثقافة والتنوير.

لقد وقفت كل الجهات المسرحية العربية احتراما لغيابه الجسدي، أما سلطاتنا الثلاث فلم تنتبه لغياب قامة باسقة، فلا علم نُكس ولا برقية تعزية وصلت ولا حضور «رفيع» في يوم تشييعه!

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني: خالد خضير

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

سامي عبد الحميد ..الصـــورة الاخيرة

علي حسين

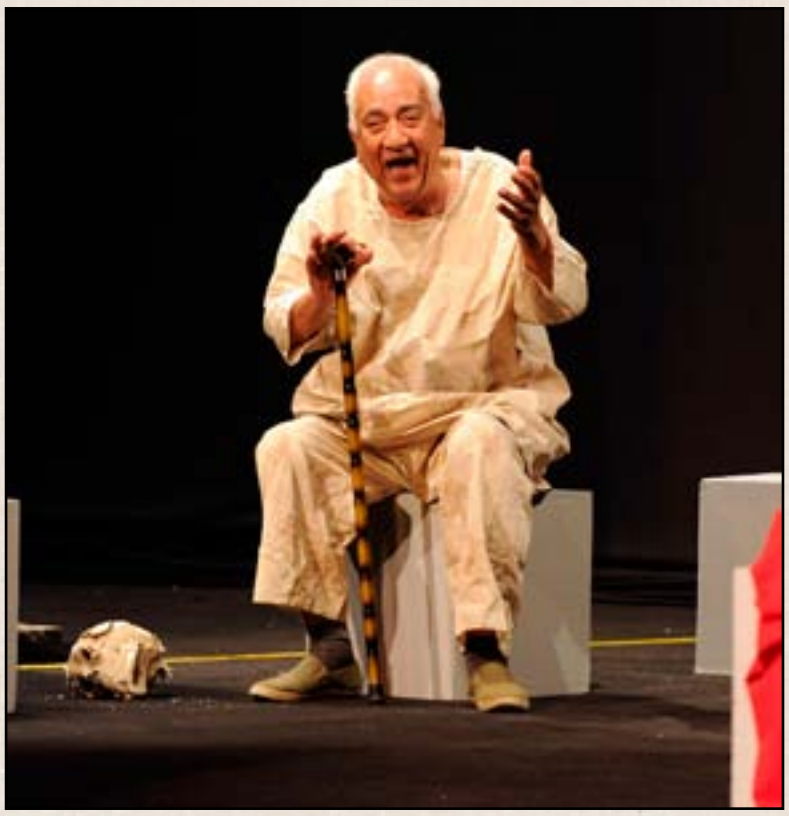

أحالتني الصورة الأخيرة للمعلم الكبير سامي عبد الحميد وهو على كرسي نقال ن يعاني من حصار المرض ، إلى سنوات كان فيها هذا الفنان والاب والمعلم الكبير، ملء السمع والبصر، حيث امتدت تخوم دولته الإبداعية إلى كل أطياف المجتمع العراقي لتجده وقد استقر رمزاً ثقافياً يدين له العراقيون جميعاً بالحب والامتنان.

انظر إلى صورة سامي عبد الحميد باسما ممطمئنا ، فاقرا في ملامح وجهه رحلة الفن والثقافة ممتزجة بأفراح ومسرات الماضي.. ونتخيل صوته الممزوج بالعذوبة وهو يقف على خشبة المسرح يؤدي شخصية جعفر لقلق زادة ويصرخ اريد ان امثل ياناس

رحل سامي عبد الحميد وهو يحمل سنواته التي تجاوزت التسعين، لكن الذاكرة تظل رسم لنا صورة لصبي صغير يتجول في ازقة السماوة ، ثم وهو شابا في بغداد يحاول مع زملاء لهمابرزهم يوسف العاني وابراهيم جلال وجعفر السعدي وبدري حسون فريد

اصطياد حكايات العراقيين وأحلامهم وقلقهم ونرى بغداد كلما استرجعنا اعمالا مسرحية اضاءت ايام وليالي هذه المدينة .

سامي عبد الحميد فنان جاهد بعزم من اجل تقديم تعريف مرئي لفلسفته الخاصة بالمسرح. ومن الصعب اعتبار الوسائل التي استخدمها في نشر هذه الفلسفة وسائل تقنية فقط، بل هي في المقام الأول وسائل معرفية وجمالية، وهو في كل هذا اثبت أن بإمكان الفنان سبر اغوار العلاقة بين الوسائل البصرية والمعرفية بالمسرح بدربة ودراية ووعي اجتماعي وفكري متميز.

فنان يمنح أعماله المسرحية تكوينات خاصة ربما تبدو غريبة أحياناً على عين المشاهد لكنها تحمل في داخلها مفاجأة تنطوي على مغامرة جديدة في المسرح. هو واحد من القلة الذين يراهنون على قدراتهم الإخراجية، لاطمئنانه من الخبرة التي يمتلكها ولذلك هو يعتقد بأن أية مسرحية كائنا من يكون كاتبها هي في متناول قدراته. وكان لرهانه سلسلة طويلة من الأعمال الناجحة مع طلبة المسرح، أو مع الفرقة القومية للتمثيل.. سامي عبد الحميد فنان يقف مؤرخو المسرح بخشوع أمام الحصيلة الفنية المزدحمة التي قدمها والتي ضمت أشهى الأفكار وأغرب وجهات النظر صارعها بشغف على خشبة المسرح.

سامي عبدالحميد.. تسعون عاماً من الجهد والبحث والمتابعة والنشاط على خشبة المسرح.. فنان بقدر ما يحرص على عملية الممازجة بين رؤاه الإبداعية وبين أفكار النص المسرحي، فإنه يحرص في الوقت نفسه على أن يشد وتائر قلبه في أضلع خشبة المسرح العراقي.. هو ابن العراق المأخوذ بجماله. لم ينظر إلى المسرح كمفردة مجردة أو حالة عابرة وإنما نظر إليه باعتباره جزءاً من عملية بناء هذا المجتمع. الأستاذ وهو اليوم على فراش المرض يرغمنا على التأمل ملياً في أعماله التي تكتسب تنوعها وخصوصيتها بشمولية الفنان واتساع نظرته وقدرته على الإفصاح عن دواخله الإنسانية بشاعرية متفردة ومتوقدة.

كانت المرة الأولى التي التقي فيها المعلم سامي عبد الحميد في نهاية السبعينيات، يومها ارسلني استاذي الراحل صلاح خالص لكتابة موضوع عن مسرح يوسف العاني.. في ذلك الوقت كان سامي عبد الحميد يعرض مسرحية بيت برنارد البا على قاعة مسرح بغداد، حيث حول منتصف قاعة المسرح الى قفص حديدي كانت النسوة "ناهده الرماح، فوزية عارف، مي شوقي، إقبال محمد علي، عواطف نعيم، سميرة الورد، باهرة رفعت واقبال نعيم ، اشبة بسبايا يحرسهن سوط العمة المتجبرة والتي ادت دورها باتقان فنانة الشعب زينب..هذه المسرحية التي يمكن ان يكتب عنها دون تحفظ، بانها صنعت المسرح التجريبي العربي، والتي اثبت فيها سامي عبد الحميد، انه الأستاذ و المعلم، والمستقبلي وصاحب الرؤية الفنية الواضحة.. وقد كانت هذه المسرحية بوابة دخولي الى عالم النقد المسرحي، حيث كتبت عنها مقالا نقديا نشر في جريدة طريق الشعب، وهو اول موضوع ينشر لي

بعدها كتبت عشرات الموضوعات والدراسات، وكان سامي عبد الحميد ايضا محورا مهما فيها، فقد نشرت عام ١٩٨٠ اول كتاب لي وهو دراسة عن اساليب الاخراج المسرحي في العراق، واتخذت من تجربة سامي عبد الحميد أنموذجا ليصدر الكتاب واحصل من خلاله على اول مكافئة "دسمة" في حياتي

سامي عبد الحميد، ولد ليكون رجل مسرح ولكن على نحو عاصف. وملحاح ومثابر، عام ١٩٩٤ كاد الحظ ان يقف الى جانبي حين اختار سامي عبد الحميد نص مسرحي كتبته بعنوان دون كيشوت في بغداد، ليقدمه للفرقة القومية للتمثيل، وقد وقع الاختيار على محمود ابو العباس ليؤدي دور دون كيشوت وناصر طه ليؤدي دور سانشو وحكيم جاسم ليؤدي دور الملك واياد راضي ليؤدي دور المؤلف سيرفانتيس وسها سالم لاداء شخصية دولسينا، كان هؤلاء السحرة يشكلون ظاهرة لن تتكرر في المسرح العراقي، ولان ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد وقفت ظروف عدة ضد تقديم العمل كان منها رفض الفرقة القومية اجازة النص بسبب ايحاءاته السياسية.

ذكريات كثيرة جمعتني مع المعلم خلال اكثر من ٣٥ سنة توزعت بين كلية الفنون الجميلة ومسرح بغداد وعملنا في لجنة المسرح العراقي سوية، وكان اخرها اداءه لشخصية غائب طعمة فرمان في مسرحية عودة غائب التي كتبتها عام ٢٠٠٧ واخرجها حيدر منعثر.

كان تشيخوف يقول لصديقه غوركي وهما يغادران مزرعة إيسيانا بوليانا : لماذا تعتقد ان تولستوي يمتدح ما نكتب؟ يضحك غوركي وهو يقول: لانه ينظر الينا كأطفال، كل ما كتبناه لعب اطفال بالنسبة اليه»..في كل مرة اذهب فيها الى بيت سامي عبد الحميد، اسال نفسي لماذا يعاملني هذا العملاق كزميل له، لاكتشف ان الكبار دائما ما يعطفون على مقلديهم في الحياة.

رحل المعلم بعد ان اضاء حياتنا بالحب والفن والابداع.